الفصل الثاني

التربية الاسلامية ... تربية مثالية

اذا رجعنا الى الاتجاهات الحديثة فى التربية فى القرن العشرين ودرسنا مبادئها وطرقها وانظمتها وجدنا ان التربية الاسلامية قد سبقتها بقرون فى المناداة بكثير من المبادىء والأساليب التربوية الهامة ، وفى الاسهام فى النهضة العقلية ، والمثل الخلقية . وسنبين تلك الآراء الخالدة بايجاز فيما يأتى :

١ ـ الحرية والديمقراطية فى التعليم :

تأثرت طرق التربية والتعليم فى التربية الاسلامية تأثرا كبيرا بمبدأ الحرية والديمقراطية ، فقد نادى الاسلام بمبدأ المساواة وتكافؤ الفرص فى التعليم ، فيسرت سبل التعليم ووسائله أمام الطلبة جميعا ، وفتحت أبواب المساجد والمعاهد الدراسية للجميع ، من غير تفرقة بين الغنى والفقير ، والرفيع والوضيع من المتعلمين اذ لا فضل فى الاسلام لعربى على عجمى الا بالتقوى والتعليم فيها بالمجان ، والطلاب غير مقيدين بسن محددة أو أشهر معدودة ، أو شهادات خاصة أو درجات معينة فى الامتحانات أو قواعد مسنونة لاختيارهم . فمتى وجدت لدى المتعلم الرغبة فى الدراسة ومحبة العلم ، والشغف بالبحث والاطلاع يسرت امامه وسائل التعلم وشجع على طلب العلم وخاصة اذا كان ذكيا نابها.

ولم تكتف الامبراطورية الاسلامية بانشاء المساجد والمعاهد ودور العلم والحكمة لنشر التعليم بل اغدقت عليها كثيرا من الاموال والخيرات. ووقف عليها الموسرون من المسلمين كثيرا من العقارات والاوقاف كى يتمكن الطلاب الفقراء من متابعة الدراسة والتعمق فى الثقافة ، والتفوق فى البحث والاستمرار فى طلب العلم والمعرفة . وقد ظهر فى الاسلام كثير من العظماء والعلماء من أبناء الفقراء نذكر منهم الغزالى والامام الشافعى والجاحظ .. رحمهم الله رحمة واسعة . فقد وجدوا طلب العلم ميسرا أمامهم فانتهزوا الفرصة وجدوا وثابروا ودرسوا وتعمقوا فى دراستهم وانتفعوا بما أوتوه من ذكاء وذاكرة وقوة ملاحظة فخلدوا أسماءهم بين العلماء أو الادباء أو الفلاسفة أو الفقهاء .

ولم تكن المواد الدراسية مقيدة بمناهج محددة بل كان الطلاب

فى كل مادة يدرسون كتابا معينا ، فاذا ما انتهوا من دراسته انتقلوا الى كتاب آخر أعلى درجة منه فى تلك المادة وهكذا حتى ينتهوا من دراسة الكتب التى يريدونها .

كان التعليم واجبا دينيا فقد فرضه الاسلام على كل مسلم ومسلمة . لهذا تحمس الاغنياء فى اقامة دور التعليم من المساجد والمعاهد والمدارس والكتاتيب ودور الكتب وتزويدها بما تحتاج اليه من المؤلفات والادوات ، تقربا الى الله تعالى حتى تؤدى رسالتها على الوجه الاكمل وينتشر التعليم وتطهر النفوس ويتمسك المتعلمون بكل فضيلة ومن تلك المنافسة النبيلة بين الأثرياء من المسلمين قديما فى انشاء المعاهد الاسلامية نلمس كيف كانوا يشعرون بالواجب نحو نشر العلم والثقافة بين المسلمين .

فالمجهود فى نشر التعليم لم يكن على عاتق الدولة وحدها ، فقد كان الموسرون فى العصور السالفة ـ لا فى عصرنا هذا ـ ينشئون دور التعليم من تلقاء انفسهم ، ويتبرعون لها بما فى استطاعتهم من التبرعات ولم يتركوا كل العبء على الدولة بل تعاونوا معها ابتغاء مرضاة الله. وكانت الدولة تقوم بالتخطيط والارشاد والتوجيه وتساعد فى انشاء المبانى التعليمية واعدادها بالأجهزة والمراصد والمعامل مساعدة تتفق وعظمة الامبراطورية الاسلامية وقوة سلطانها ولم يقيد التعليم بقيود حديدية او مؤهلات علمية او مصروفات مدرسية أو شروط استعمارية كى لا يضعوا عقبة فى سبيل من يريد التعليم من البنين والبنات . وفتحت ابواب التعليم على مصاريعها أمام كل راغب فى الدراسة العلمية والدينية وفى كل وقت وكل دار من دور التعليم . وهذه هى الديمقراطية الحقة فى التربية والتعليم .

كان التعليم بالمجان والغذاء بالمجان والاقامة بالمجان فى المراحل المختلفة من التعليم فى المعاهد الاسلامية ، وهذا أكبر مظهر من مظاهر الديمقراطية فى الاسلام وان هذا الروح الديمقراطى الاسلامى الذى انتشر فى التعليم لا نجده حتى اليوم بين أغنى الدول الاوربية او الامريكية .

وفى التربية الاسلامية لم يضطر الفقراء من طلاب العلم الى السعى للحصول على المجانية فى اية مرحلة من مراحل التعليم أو الكد والعمل صيفا وشتاء لتوفير المصروفات المدرسية أو الجامعية . ولم يكن الفقر فى عصر الامبراطورية الاسلامية الحرة المستقلة عقبة فى سبيل التعلم فى

أى معهد بل أعطى الفقراء كل فرصة فى أن يتعلموا التعليم الذى يبغونه ولم توضع امامهم العقبات بل مهدت لهم كل السبل ، وزودوا بجميع الوسائل التى تيسر لهم التفرغ لطلب العلم من مجانية فى التعليم واقامة بالاقسام الداخلية . وتغذية صحية ومساعدة مالية وانتفاع بما فى المكتبات من كتب ومراجع .

ولم يطالب أبناء الفقراء من المسلمين بالاكتفاء بالتعليم الابتدائى أو الثانوى والرضا بمراكزهم المتواضعة فى الحياة بسبب الفقر بل شجعوا على اللحاق بالمعاهد العليا وأعطى الجميع الفرصة فى أن يتعلموا حتى النساء والجوارى . وكان المسلمون ينظرون الى العلماء والادباء والفقهاء نظرة كلها اجلال واكبار ، سواء أكانوا أغنياء أم فقراء ولهذا شجع الآباء أبناءهم على التعليم والاقبال على المعاهد الدراسية وقد بدأنا منذ سنوات فى نشر التعليم الابتدائى والثانوى بالمجان والتغذية فى المدارس الابتدائية بالمجان وفى هذا المبدأ رجوع الى ماضينا الاسلامى المجيد وتقاليدنا الاسلامية الديمقراطية العريقة .

وفى التربية الاسلامية الاولى لم يكن هناك نظام طبقات فى التعليم ولم تخلق مدارس بمصروفات للأغنياء القادرين ومدارس أولية بالمجان للفقراء المعدمين الا فى عصر الاحتلال . فالاحتلال هو الذى أدخل نظام الطبقات والتفرقة فى التعليم بين الاغنياء والفقراء فانشأ مدارس ابتدائية وثانوية وعالية بمصروفات لأبناء الموسرين القادرين ومدارس اولية قليلة بالمجان لأبناء الطبقات الفقيرة .

لقد سوى الاسلام بين أبناء الاغنياء والفقراء فى التعليم ومنحهم جميعا الفرصة فى أن يتعلموا من غير تفرقة بينهم . ولم يقل احد من المسلمين ان الفقراء خلقوا ليعملوا بايديهم فى الحقول والمزارع والمعامل والمصانع ، وان الاغنياء وجدوا ليتحكموا فى الفقراء ، ويسيطروا عليهم بما أوتوا من مال وثراء ، لم يدع أحد فى الاسلام ان الذكاء مقصور على الاغنياء وانهم خلقوا ليتحكموا ، وان الفقراء أغبياء خلقوا ليحكموا . فالذكاء هبة فطرية من الله تعالى يمنحها الفقراء كما يمنحها الاغنياء ولم يجعله مقصوراً على طبقة من الطبقات . وقد سوى الاسلام بين الفقراء والاغنياء فى حق التعليم ، ومهد لهؤلاء وأولئك الفرص الملائمة للتزود بالعلوم والمعارف .

لم يقل الاسلام للفقراء انكم خلقتم للمراكز المتواضعة وخلق الأثرياء للمراكز العالية . كما كان يقال فى أوربا حتى القرن التاسع

عشر . بل نادى الاسلام دائما : الناس سواسية كأسنان المشط ، ولا فضل لعربى على عجمى الا بالتقوى . وهذه هى الديمقراطية والعدالة والمساواة فى الاسلام .

والحق ان المعاهد الاسلامية لم تقيد بشروط معينة للحاق بها ولم ينتظر من طالب العلم الا امر واحد هو الرغبة فى العلم ، والاقبال عليه ، والتعطش للتعلم . ولم توصد أبواب المعاهد والحلقات الدراسية فى وجه طالب من طلبة العلم وقد وهب الاساتذة والعلماء حياتهم للعلم والتعليم . ولم ينتظروا اجرا او راتبا ، بل كانوا يشتغلون بمهنة التعليم ابتغاء مرضاة الله ويستعينون على المعيشة فى الحياة بحرفة او صناعة يتخذونها فى بعض أوقات فراغهم .

لهذا كله اقبل الطلاب على العلم لذات العلم ، وظهر كثير من العلماء والأدباء والمؤرخين الافذاذ كابن سينا والفارابى والغزالى ، والكندى وابن الهيثم وابن خلدون والطبرى وابن الاثير والجاحظ والمعرى والمتنبى .

ولا عجب ، فقد كانت سبل التعليم ميسرة للجميع والكتب متوافرة للطلبة والحياة ممهدة لا يجد النابهون والأذكياء من الفقراء اية عقبة فى سبيلهم . لذلك وجد منهم عظماء من الفقهاء والمفسرين والمحدثين ، وعلماء اللغة ، والادباء ، الذين خدموا الدين واللغة والعلم والادب خدمة عظيمة نلمسها فيما تركوه من مؤلفات ثمينة وكتب قيمة.

وخلاصة القول : ان التربية الاسلامية تتمثل فيها المبادىء الديمقراطية ، من الحرية والمساواة وتكافؤ الفرص فى التعليم ، من غير تفرقة فى طلبه بين الموسرين والمعدمين وان المسلمين كانوا يعدون طلب العلم فريضة دينية وواجبا روحيا لا وسيلة لغرض مادى ويقبلون عليه بقلوبهم وعقولهم ويطلبونه برغبة قوية من تلقاء انفسهم . وكثيرا ما كانوا يقومون برحلات طويلة شاقة فى سبيل تحقيق مسألة علمية أو دينية.

٢ ـ التربية الخلقية الكاملة أسمى أغراض التربية الاسلامية :

تعد التربية الخلقية المثالية اسمى أغراض التربية الاسلامية فقد عنى علماء الاسلام كل العناية ببث الاخلاق الكريمة وغرس الفضائل فى نفوس المتعلمين ، وتعويدهم التمسك بالفضيلة ، وتجنب الرذيلة ،

والتفكير فى الناحيـة الروحيـة والانسانية والتفـرغ للدراسة العلمية والدينية من غير نظر الى ناحية مادية .

وان من يقرأ ما كتبه فلاسفة الاسلام من آراء فى التربية وتهذيب الاخلاق يلمس الاتجاه دائما نحو المثل السامية ويرى انهم كانوا يطلبون العلم لذات العلم ويعدون طلبه عبادة ويقضون حياتهم دائبين فى البحث والدراسة للوصول الى لب الحقيقة دون تفكير فى مال أو جاه أو مركز، ويقدسون العلم والعلماء ، وكمال الاخلاق . فالعلم فى نظرهم اعظم شىء فى الحياة ، والعلماء العاملون ورثة الانبياء . ولا يستطيعون تادية رسالتهم العلمية الا اذا تحلوا بكل فضيلة وطهروا أنفسهم من كل رذيلة . وعن طريق العلم والعمل الصالح كانوا يسمون بأرواحهم ويتقربون الى خالقهم جل شأنه .

وان تلك المثالية النادرة التي امتازت بها العصور الذهبية للاسلام هى سر عظمتها وقوتها الروحية ، وقد ادت الى نشاط كبير فى التاليف والانتاج العلمى والعمل عن ايمان وعقيدة بثبات وشجاعة واقدام . لهذا كله كان مستوى العلماء الخلقى والروحى رفيعـا ونجحوا فى حيـاتهم ونهضوا فى كل ناحية . وقادوا العالم فى العصـور الاسلامية الاولى فى حضارتهم الاسلامية ، ومدنيتهم الروحيـة ، ومثلهم العاليـة فى الدين والاخلاق ، ودافعوا عن الانسانية بمبادئهم الديمقراطية من الحرية والاخاء والمساواة والعدالة المطلقة. وفى الوقت الذى عنيت فيه التربية الاسلامية بالناحية الروحية والخلقية لم تهمل اى نوع من انواع التربية العقليـة او الجسمية او الرياضية أو الاجتماعية والعلمية والعملية فوصلت الى التربية المثالية الكاملة للانسان ، وتركت تلك التربية اثرا لا يستطيع ان ينكره احد فى العمل عن ايمان وعقيدة والعلم لذات العلم .

وقد نهضنا الان فى الميادين العلمية والادبية والمادية ولكننا لم نصل الى المستوى الروحى والخلقى الذى وصل اليه المسلمون فى العصـور الاولى من الاسلام . والحق اننا فى حاجة شديدة الى التفكير فى الناحية الروحية والتربية الخلقية المثالية حتى نعيد مجدنا السالف وعظمتنـا الاسلامية القديمة .

٢ ـ خاطبوا الناس على قدر عقولهم :

هذا مبدأ من اهم المبادىء فى التربية الاسلامية ويعد من احـدث المبادىء فى التربية الحديثة . وينبغى أن تكتب هذه النصيحة بقلم من

النور على باب كل مدرسة ، فلا يخاطب الاطفال بلغة لا يفهمونهـا ولا يخاطب الكبار بلغة الصغار . وهذا ما يشير اليه الغزالى بقوله : « أن يقتصر المعلم بالمتعلم على قدر فهمه فلا يلقى اليه ما لا يبلغه عقله فينفره أو يخبط عليه عقله » اقتداء فى ذلك بسيد البشر صلى الله عليه وسلم حيث قال : « نحن معاشر الانبياء امرنا أن ننزل الناس منازلهم ونكلمهم على قدر عقولهم » فليبث اليه المعلم الحقيقة اذا علم أنه يستطيع فهمها مستقلا بنفسه وليضع كل طفل فى الموضع اللائق وليختر للمتعلمين المادة التى يدركونها وليكلمهم على قدر عقـولهم ، وليخاطبهم بالعبـارة التى يفهمونها ، واللغة التى يحسنونها .

وقال صلى الله عليه وسلم : « ما أحد يحدث قوما بحديث لاتبلغه عقولهم الا كان فتنة على بعضهم » . وان التربية الحديثة تنادى بمـا نادى به الرسول الكريم من مخاطبة المتعلمين على قدر عقولهم ومراعاة مستواهم العقلى ومستواهم العلمى ، حتى يدركوا الأحاديث التى تقال لهم ، والموضوعات التى يدرسونها . فلا يخاطب الاذكياء بمـا يخاطب به الاغبياء ، ولا يخاطب الخاصة بما يخاطب به العامة . فالذكى يفهم الشيء بالاشارة والغبى ربما لا يفهمه الا بعد أن يكرر له عدة مرات . ولذلك قيل : كل لكل عبد بمعيار عقله ، وزن له بميزان فهمه حتى تسلم منه وينتفع بك . وضع كل شيء فى موضعه وهى خير نصيحة لو استطاع ان ينفذها كل مرب ومربية .

٤ ـ التفرقة فى الطريقة التى تتبع فى التعليم :

فطريقة تعليم الاطفال تختلف عن الطريقة التى تتبع فى تعليم الكبار. وقد نادى الغزالى بهذا الرأى لان هناك فرقا بين ادراك الصغار وادراك الكبار حيث قال :

(ان من أول واجبات المربى أن يعلم الطفل ما يسهل عليـه فهمه لان الموضوعات الصعبة تؤدى الى ارتبـاكه العقلى وتنفـره من العلم) ويشاركه العلامة ابن خلدون فى هذا الرأى قائلا :

وقد شاهدنا كثيرا من المعلمين لهذا العهـد الذى ادركنا يجهلون طرق التعليم وافادته ويحضرون للمتعلم فى أول تعليمه المسائل المقفلة من العلم ويطالبون ذهنـه بحلها ، ويحسـبون ذلك مرانة على التعليم

وصوابا فيه .. فان قبـول العلم والاسـتعداد له ينشأ تدريجيا .. فالغزالى وابن خلدون وغيرهما من فلاسفة التربية الاسلامية يرون أن تفكير الطفل يختلف عن تفكير الرجل ، ويجب مراعاة ذلك فى طـريقة التدريس لكل منهما . ويعد هذا الرأى من أهم الآراء فى التربية الحديثة فى القرن العشرين .

فالطفـل يحتاج الى الامور المحسـة التى تتصل ببيئته والمـواد السهلة التى يمكنه أن يفهمها والرجل يستطيع أن يدرك الامور المعنوية التى تتفق مع العقل والمنطق .

٥ ـ التربية الاسلامية تربية استقلالية :

ان من ينظر الى طرق التدريس فىالتربية الاسلامية ـ فى المساجد والمعاهد ودور العلم ـ يجد أنها كانت ترمى الى تعويد الطلبة الاعتماد على انفسهم فى التعلم ، فالمدرس أو المحاضر يعين لطلبته بعد الانتهـاء من درسه كل يوم تعيينا خاصـا من الكتاب الذى يدرسـونه ، لقراءة التعيين قبل الدرس واعداده والاجتهاد فى فهمه . فاذا ذهب الطـلاب الى الدرس اصغوا الى أستاذهم ، واستمعوا اليه وهو يشرح الدرس، ويفسر النقط الصعبة فيه ويرشد من يحتاج الى الارشاد ويساعد من يحتاج الى المساعدة ويجيب عما يسـألونه من الاسئلة ويناقشهم فيما يحتاج الى مناقشـة .

وبهـذه الطريقة يعتاد الطـلاب الاعتماد على النفس فى القـراءة والفهم والبحث ويربون تربية استقلالية .

وكانت طـريقة التعيينـات متبعة فى الجامع الازهـر وقد كونت افذاذا من العلماء المعروفين بالعلم والصلاح والتقوى والشجاعة الادبية وكان المحاضر يلقى محاضرته وهو متمكن منها كل التمكن ويشرح آراء العلماء ويبين وجهة نظر كل منهم ويبدى رايه الخاص ويترك للطلبـة الحرية فى الاسئلة والمناقشة . وفى التربية الحديثة تسمى طريقةالتعيين طريقة دلتون وهى طريقة حديثة تنسب الى «مس هيلين باركهرست» وقد جربت طريقتها فى بلدة دلتـون بولاية مساشوستس من الولايات المتحدة بأمريكا . وهى لا تختلف عن الطريقة الازهرية قديما فى التربية والتعليم .

٦ ـ نظام التعليم الفردى فى التربية الاسلامية :

اننا نقصد من التعليم الفردى مراعاة قوة كل فرد ومستواه فيما يدرسه من المواد وفى عالم التربية اليوم حركة قومية تحض على اتباع هذا النظام . وقد تعجب اذا عرفت انه روعى فى التربية الاسلامية العريقة منذ قرون مضت وكان لكل طالب الحرية فى أن يختار أستاذه الذى يتلقى العلم عنه ولا يفرض عليه أستاذ معين ويختار المواد التى يدرسها ويسير فى كل منها على حسب مستواه ، وكانت التبعة فى الدراسة والبحث تلقى على عاتق الطالب فهو ملزم باعداد الدرس أو التعيين وقراءته ومحاولة فهمه ومناقشته مع غيره من زملائه قبل أن يحضر درس أستاذه وسؤال الاستاذ عن النقط التى يشعر بصعوبتها فى الدرس وكان يسير مع استاذه من درس الى درس حتى ينتهى الكتاب الذى يقرؤه الاستاذ . وكان المدرس على صلة روحية كبيرة بتلاميذه ، يعرف قواهم وميولهم ورغباتهم ويراعيها فى تدريسه وللصلة الروحية القوية بينه وبينهم كانوا يستفيدون كثيرا من علمه وخلقه ، وينتفعون من الاتصال به روحيا وعلميا .. وهذا روح التربية الحديثة اليوم .

وكان المتعلمون يشبعون رغباتهم بما يحتاجون اليه من العلم ويعتمدون على أنفسهم فى البحث وراء الحقيقة حبا فى الوصول اليها يرشدهم المعلم حين يحتاجون الى الارشاد ويجدون لذة فى التعلم ويعطون الحرية فى العمل بأنفسهم ، فيتعودون الجد والمثابرة على العمل والاعتماد على النفس والتغلب على الصعوبات التى تعترضهم ، ويمرنون على اتقان العمل واجادته ويعتادون الصفات الضرورية للنجاح فى الحياة العلمية والعملية .

ولم يقتصر طلاب العلم على التحصيل من الكتب وحدها فكان أساتذتهم يشجعونهم على الرحيل فى سبيل طلب العلم للاتصال بالعلماء والادباء والمؤلفين وأخذ العلوم من منابعها الاصلية . وكثيرا ما احتمل الطلاب قديما مشاق السفر الطويل للاتصال شخصيا بأساتذتهم ، ورحلوا الى اقاصى البلاد الاسلامية لتحقيق مسألة علمية أو فقهية واحدة .

من هذا كله نرى أن التربية الاسلامية كانت تنادى بحسن الصلة بين المدرس وتلاميذه ومراعاة مستوى المتعلمين ومواهبهم واستعداداتهم والرحلات فى سبيل الدراسة والبحث العلمى. وهذه كلها مبادىء نعدها مثالية فى التربية الحديثة فى القرن العشرين .

٧ ـ مراعاة الاستعدادات الفطرية والغرائز الطبيعية للمتعلم فى ارشاده الى المهنة التى يختارها :

لقد طالب علماء التربية الاسلامية بمراعاة ميول المتعلم واستعداداته الفطرية وقدراته الطبيعية عند ارشاده الى المهنة التى يختارها فى مستقبل حياته وخاصة ابن سينا فقد نادى بالعناية بدراسة ميول الطفل وجعلها أساسا لارشاده وتربيته قائلا : ليس كل صناعة يرومها الصبى ممكنة له مواتية ولكن ما شاكل طبعه وناسبه. . .ولذلك ينبغى لمدبر الصبى اذ رام اختيار صناعة أن يزن أولا طبع الصبى ، ويسبر قريحته ويختبر ذكاءه . فيختار له الصناعات بحسب ذلك . وهى نصيحة ثمينة لابن سينا ينصح فيها المربين الذين يريدون اختيار صناعة لصبى من الصبيان أن يزنوا طبعه او ميله ويعرفوه ويختبروا عقله وذكاءه . حتى يختاروا له صنعة تناسب ميله وعقليته ، فاذا كان يميل الى الدراسة الادبية وجه اليها واذا رغب فى الناحية العملية شجع على اختيارها واذا احب الدراسة العلمية اعطى الفرصة فى دراستها . وهذا رأى من أثمن الآراء فى التربية الاسلامية ونحن ننادى به اليوم فى التربية الحديثة .

وليس من السهل أن ينبغ المتعلم فى كل مادة يدرسها ولكنه يستطيع ان يتفوق ويكون ماهرا فى المواد التى يحبها ويميل الى دراستها . ومن المحال أن ينبغ فى المواد التى يكرهها وينفر منها .

ولا أبالغ اذا قلت ان التربية الاسلامية كانت تفكر فى الاذكياء وتلتقطهم كما تلتقط الأزهار من الحدائق وتعنى بهم كل العناية وتضعهم فى المواضع التى تناسب ذكاءهم وتوجه غير الاذكياء والمتعلمين الى الناحية العملية بعد الالمام بالضرورى من الدراسة الدينية وتوضح لكل طالب ما يليق بطبعه من العلوم اذ كل ميسر لما خلق له ، فالتربية الاسلامية تربية مثالية قد نادت منذ اكثر من ألف سنة بما ينادى به علماء النفس والتربية اليوم وانتظرت من المدرس ان يفكر فى حال الطالب اذا كانت لديه زيادة فى الفهم بحيث يقدر على حل المشكلات وكشف المعضلات ويهتم بتعليمه أشد الاهتمام . والا فليعلمه القدر الكافى لمعرفة الفرائض والسنن ، ثم يأمره بالاشتغال ، وليكن بصيرا فى اختبار ذهنه وعقله وقياس ذكائه ويبين لكل طالب ما يليق بطبعه من العلوم .

وهنا نلمس أن التربية الاسلامية لا تختلف عن التربية الحديثة فى مراعاة مستوى الطفل وحسن اختيار المادة له والتدرج معه فى الدرس

على قدر استعداده ، واعطاء الذكى فرصة فى اتمام تعليمه بأية وسيلة وتوجيه الغبى الى الاشتغال بالناحية العملية ، بعد اختبار ذكائه . وان فكرة الاختبارات العقلية او مقاييس الذكاء التى نفخر ونتباهى بها فى القرن العشرين قد روعيت فى العصور الذهبية للتربية الاسلامية بطريقة عملية . ولا ابالغ اذا قلت ان فلاسفة الاسلام نادوا بما ننادى ونفخر به اليوم .

٨ ـ الولع بالعلم والتفرغ للدراسة :

كان الطلاب مولعين بالعلم محبين للتعلم ، متفرغين للدراسة يقضون جل اوقاتهم فى البحث والاطلاع والقراءة والدرس ومحاولة الفهم وحل المعضلات من الاعتراضات العلمية وهضم العلم الذى يدرسونه ويجدون لذة كبيرة فى الفحص عن العلوم والمسائل ويمكثون نهارهم وليلهم ـ الا اقله ـ فى اعداد دروسهم لليوم التالى ويهبون شبابهم وحياتهم لطلب العلم والمعرفة ويستيقظون من نومهم مبكرين لصلاة الفجر ثم حضور درس التفسير او الحديث ثم الفقه ثم اللغة .

لهذا كان من بين المسلمين اعلام العلماء وكبار الفلاسفة ومشهورو الفقهاء والكتاب والادباء والشعراء والمؤلفون واللغويون وأنتجوا مؤلفات ضخمة قيمة فى التفسير والحديث والفقه والتوحيد والبلاغة والادب والنحو والصرف والمعاجم اللغوية . وهى كتب ومراجع لا يستطيع احد من علماء اليوم فى الشرق او الغرب ان يقوم بمثلها .

٩ ـ العناية بالخطابة والمناظرة وتربية اللسان :

كان من اهم انواع التربية الاسلامية التربية اللسانية وهى تعويد اللسان حسن التعبير مع دقة التفكير والارتجال فى الخطابة والاقناع فى المناظرة والمناقشة والمجادلة وتعد طلاقة اللسان فى الكلام الآن من الضروريات للنجاح فى حياة المعلمين والمحامين والسياسيين ... واذا نظرنا الى التربية فى عصرنا هذا وجدنا عناية كبيرة بالكتابة واهمالا تاما للمناظرة والخطابة مع ان الحياة الديمقراطية تتطلب العناية بكلتيهما تتطلب الفصاحة والبلاغة فى كتابة الرسائل والمقالات والقاء الخطب ارتجالا وتحتاج الى تربية اليد لتكتب كتابة بليغة واللسان ليتكلم كلاما

فصيحا وبعبارة أخرى تحتاج الى استعمال القلم وذلاقة اللسان وقوة البيان . فنحن نطالب اليوم بجودة التعبير بالقلم واللسان معا بحيث لا نعنى بأحدهما ونهمل الآخر .

فكما ننتظر من المربين أن يربوا الطلاب ليفكروا بعقولهم ويشعروا بقلوبهم وينفذوا بارادتهم ننتظر منهم عنايتهم بالخطابة والمناظرة واجادة التعبير بالقلم واللسان .

ولا يستطيع أحد ان ينكر أثر المناظرات والمناقشات فى المنتديات والمجتمعات الاسلامية فى النهضة العلمية والادبية والدينية .

١٠ ـ الرفق فى معاملة الاطفال :

كانت التربية قبل الاسلام تتبع أساليب الشدة والقسوة فىمعاملة الاطفال وتربيتهم فقد كان الجلد منتشرا ، والعقاب القاسى شائعا ، ولكن فلاسفة الاسلام تنبهوا الى مضار هذه الاساليب فى التربية فحذروا من استعمالها ونادوا بالرفق فى تربية الاطفال وعلاج اخطائهم بروح الشفقة والرأفة والعطف والرحمة ومعرفة البواعث التى أدت الى هفواتهم والعمل على تداركها ، وتفهيم الاولاد نتيجتها ، وساروا مع الطرق المثلى فى التربية وحملوا حملة شعواء على الشدة والقسوة فى التربية وعدوها قاتلة للهمم ، مخيبة للذكاء ، مؤدية الى الذل والخداع.

١١ ـ نظام الجامعات الشعبية مقتبس من التربية الاسلامية :

كانت التربية الاسلامية مرنة ، تفتح أبوابها لكل راغب فى طلب العلم قادر على الفهم تشجع المتعلمين على الاستمرار فى التعلم والبحث العلمى ، لا تتقيد بسن أو مجموع درجات أو ترتيب فى امتحانات ولا تطلب منهم مصروفات .

فالنظام الحديث للجامعات الشعبية اقتبسته أوربا من التربية الاسلامية فى عصورها الأولى تلك التربية التى قدست العلم وعدته نوعا من العبادة ورغبت النشء فى التعلم ، ولم تشترط مؤهلات معينة أو شهادات خاصة أو نسبا مئوية محددة ولم تقيد بقيود من الفولاذ ، وشروط كلها تعقيد وتعجيز ولم تضع عقبات فى سبيل من يرغبون فى طلب العلم .

فالدين الاسلامى دين علم ونور لا دين جهل وظلمة ونظام الجامعات الشعبية التى تعمل لنشر الثقافة العامة بين الراغبين فى تكملة انفسهم ثقافيا وعلميا وادبيا وفنيا من أبناء الشعب وبناته ـ مقتبس من انظمة التعليم فى التربية الاسلامية فى عصورها الذهبية .

١٢ ـ العناية بدور الكتب للتشجيع على البحث والاطلاع :

لقد عنيت التربية الاسلامية كل العناية بانشاء دور الكتب العامة والخاصة ولا نبالغ اذا قلنا ان انشاء المكتبات من مبتكرات التربية فى الاسلام لتشجيع العلماء والطلاب على البحث والقراءة والاطلاع ونسخ بعض الكتب الثمينة وترجمة ما يستحق الترجمة منها واقتناء ما يصح اقتناؤه من الكتب الدينية والعلمية والادبية والخلقية. ففى دور الكتب الاسلامية كنت تجد الباحثين والمطلعين والناسخين والمترجمين وكان لهم أثر فى الحضارة الاسلامية والنهضة العلمية .

وان ننسى لا ننسى ما تركه المسلمون من كتب قيمة دينية وخلقية واجتماعية وعلمية وادبية وما كتبوه من الموضوعات التربوية فيها . ومن تلك المؤلفات :

كتاب السياسة لابن سينا ـ وكتاب المدخل للعبدرى ـ وكتب الامام الغزالى ـ والدرارى فى الذرارى لابن العديم الحلبى والمقدمة لابن خلدون وكتاب جامع بيان العلم وفضله للنمرى القرطبى والبيان والتبيين للجاحظ .

وهناك كتب محدودة فى التربية مثل كتاب تعليم المتعلم للزرنوجى وأحكام المعلمين والمتعلمين لمحمد بن زيد وكتاب الفضيلة لأحوال المعلمين واحكام المعلمين والمتعلمين للقابسى القيرونى « وهو مخطوط بدار الكتب المصرية » ورسالة المعلمين للجاحظ وترغيب الناس الى العلم للفطمونى وآداب المعلمين لابن سحنون .

١٣ ـ وظائف المعيدين فى الجامعات أخذتها المعاهد الاوربية والامريكية من التربية الاسلامية :

كانت وظائف المعيدين من الاساليب التربوية فى المعاهد الاسلامية القديمة وقد تاثرت الجامعات الاجنبية بالتربية الاسلامية فى انتفاعها

بنظام المعيدين فى الجامعات بعد تخرجهم فيها لتمرينهم على مهنة التدريس وتشجيعهم على الاستمرار فى الدراسة والبحث العلمى والاستزادة من العلوم للتعمق فى الدروس والاطلاع والانتاج فى التأليف والتصنيف واظهار البحوث العلمية والادبية والدينية وقد تأثر الغرب بهذا النظام حتى وقتنا هذا .

آراء موجزة للغزالى تتفق مع التربية الحديثة وعلم النفس :

ولنذكر هنا بايجاز آراء للغزالى تتفق تمام الاتفاق مع احدث آراء فلاسفة التربية وعلم النفس فى القرن العشرين :

١ ـ مهنة التعليم اشرف المهن وطلب العلم لا يتأتى مع المشاغل.

٢ ـ يجب الا يعامل الغلمان جميعا معاملة واحدة فى التهذيب بل يعامل كل منهم وفق مزاجه وطبائعه ويراعى استعداد كل طفل .

٣ ـ يجب أن نبادر بتأديب الطفل من الصغر .

٤ ـ ينبغى تعويد الطفل الاخشيشان فى الطعام واللباس والفراش .

٥ ـ يجب أن يأخذ الطفل حظا وافرا من الرياضة البدنية واللعب الجميل حتى لا يموت قلبه وتسوء معيشته .

٦ ـ يجب أن يعود الاخلاق الجميلة والعادات الحميدة ويجنب الرذائل والمساوى ويحفظ من قرناء السوء .

٧ ـ تجب مكافأته على كل خلق جميل أو فعل حميد يظهر منه والاقتصاد فى لومه وتعنيفه عند وقوع الذنوب .

٨ ـ يحسن التدرج فى ترك الاخلاق السيئة اذا صعب تركها مرة واحدة .

٩ ـ ينبغى الا يدع المعلم شيئا من نصح المتعلم وان يزجره عن سوء الخلق بطريق التعريض لا التصريح وبطريق الرحمة لا التوبيخ .

١٠ ـ يجب الا يدع المتعلم فنا الا وينظر فيه نظرا يطلع به على غايته ، ثم يتبحر فيه اذا ساعده العمر .

١١ ـ يجب الابتداء بالأهم من العلوم فان العمر لا يتسع لجميعها.

١٠٢ ــ ينبغى الا يخوض المتعلم فى فن حتى يستوفى الفن الذى قبله .

وهذه كلها آراء سديدة ونصائح ثمينة وارشادات منطقية ، نرجو ان يعمل بها المربون والمربيات من آباء وامهات ومعلمين ومعلمات .

آراء علماء الاسلام فى بعض الغرائز وتربيتها وهى تتفق مع آراء علماء النفس اليوم :

ان من يطلع على ما خلفه علماء الاسلام من كتب يرى كثيرا من الآراء لهم فى الغرائز وتربيتها والدراسات للقوى الانسانية وصلتها بالتربية الخلقية . فهم يقولون ان فى الانسان :

١ ــ قوة للتمييز والتفكير .

٢ ــ وقوة غضبية ــ تشمل الغضب والنجدة والاقدام وحب التسلط والترفع .

٣ ــ وقوة شهوية تشمل طلب الغذاء وأنواع اللذات الحسية.

ولا يرون شرا فى الشهوات أو الغرائز الا اذا زادت على حد الاعتدال فالغزالى مثلا يرى ان الشهوة ــ وهى الغريزة ــ خلقت فى الانسان لفائدته وانها ضرورية فى الجبلة أو الطبيعة .

ويرى عبد الرحمن بن الجوزى فى كتاب الطب الروحانى (ص٣) ان جميع ما وضع فى الآدمى انما وضع لمصلحته اما لاجتلاب نفع كشهوة الطعام أو لدفع ضرر كالغضب فاذا زادت شهوة الطعام صارت شرها فآذت . واذا زاد الغضب اخرج الى الفساد .

واننا نوافق الغزالى وابن الجوزى فى ان الغرائز خلقت فى الانسان لمصلحته وانها ضرورية له ، ويجب الا تزيد على حد الاعتدال . ومعنى هذا انه يجب تعديلها وتربيتها وتعليتها كما يقول علماء النفس اليوم .

ويرى ابن الجوزى ايضا ان الاصل فى الأمزجة الصحة وان العلل طارئة وان اقوم التقويم (أى احسن التربية) ما كان فى الصغر فاذا ترك الولد وطبعه فنشأ عليه ومرن كان رده صعبا .

واننا نعتقد أن هذه الآراء لا يستطيع احد ان ينكرها من علماء النفس والتربية اليوم .

والغزالى يرى ان الطفل يتقبل الخير والشر ولا يدرك فى طفولته الفرق بينهما حيث يقول : « وكما ان الغالب على اصل المزاج الاعتدال وانما تعترى المعدة المضرة بعوارض الاغذية والأهوية والاحوال فكذلك كل مولود يولد معتدلا صحيح الفطرة وانما أبواه يهودانه او ينصرانه أو يمجسانه . » فالغزالى يقول بأثر التربية فى تهذيب الغرائز والميول الفطرية وتربيتها وتشجيع ما يستحق منها التشجيع. وتعديل مايحتاج الى تعديل ولا يقول بكبتها ، ويعتقد أن كل طفل يولد معتدلا قابلا للخير والشر ، يتأثر بالبيئة التى يعيش فيها فان كان فى بيئة يهودية نشأ يهوديا وان كان فى بيئة نصرانية او مجوسية كان نصرانيا أو مجوسيا وان نشأ فى بيت اسلامى كان مسلما يدين بالاسلام .

وهذا هو المقصود بقول الرسول الكريم : « كل مولود يولد على الفطرة وانما ابواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » وهى آراء ناضجة صحيحة لفلاسفة الاسلام نادوا بها منذ قرون طويلة وهى لا تختلف عن آراء المحدثين فى علم النفس اليوم .

ولا يمكننا أن ننسى قول الغزالى : « ان النواة ليست بتفاح ولا نخل قبل أن نتعهدها بالفرس والتربية على ان التربية لا يمكنها ان تغير من استعداد النواة لقبول بعض الاحوال دون بعضها الآخر فتجعل من نواة النخل تفاحا ومن نواة التفاح نخلا . فكذلك الغضب والشهوة لو اردنا قمعهما وقهرهما بالكلية حتى لا يبقى لهما اثر — لم نقدر عليه أصلا ولو أردنا سلاستهما وقودهما «وقيادتهما» بالرياضة والمجاهدة قدرنا عليه .

ومن هذا نرى أن الغزالى ادرك تمام الادراك الوراثة وقوانينها والتربية واثرها والكبت وضرره واقر بأثر التربية والتهذيب ، فنواة التفاح تنبت تفاحا ونواة النخل تنبت نخلا ، ولكنهما فى حاجة الى من يتعهدهما بالفرس والتربية والرقابة والعناية .على ان التربية لاتستطيع أن تغير الوراثة . وتجعل من نواة النخل تفاحا ومن نواة التفاح نخلا ومعنى هذا ان للوراثة اثرا كبيرا فى حياة الانسان ومظهره فهو يشبه اباه وامه أو جده او جدته من الطرفين فى الصفات الجسمية والعقلية وابناء الاذكياء اذكياء وابناء المعتوهين معتوهون . وقد ثبت هذا كله فى علم النفس العام . ومن قوله نستنبط : ان قمع الغضب وقهر الشهوة وكبت الغرائز بالكلية تضر الطفل كل الضرر ، ومن الخير ان

تقوده بالارشاد والنصح والتهذيب والمحاولة حتى تهذب ما لديه من غضب أو شهوة أو غريزة جامحة .

وقد اهتم فلاسفة الاسلام بالفروق الفردية بين الاطفال تلك الفروق الناشئة عن الاختلاف فى الوراثة أو الاختلاف فى الميول والاستعدادات الفطرية . وادركوا تلك الفروق الفردية وراعوها فى التربية والتعليم وقاموا بما ينادى به علماء التربية الحديثة فى النصف الثانى من القرن العشرين فى وقت كان يقول فيه احد الفلاسفة من الاوربيين فى القرن الثامن عشر : « التربية تستطيع أن تفعل كل شيء» ناسيا الوراثة واثرها والاستعدادات الفطرية لدى النشء وماذا تستطيع التربية أن تفعل مع طفل ضعيف العقل أو معتوه أو فى منتهى الغباوة ؟

ان التربية الحديثة بما أوتيت من وسائل مشوقة وانظمة جميلة وطرق جديدة لا تستطيع مطلقا أن تفعل شيئا مع هذا النوع المسكين من الاطفال . ولا يمكنها أن تحول المعتوه الى طفل ذكى أو فائق الذكاء مهما تحاول ومهما تقدم له من العناية والتربية .

وقد كان فلاسفة الاسلام فى دراستهم للغرائز والميول الفطرية متفائلين فلم يقولوا كما قال فلاسفة أوربا فى القرون الوسطى ان الميول الغريزية والطبيعة البشرية فاسدة ، بل تفاءلوا كل التفاؤل وبحثوا تلك الميول والغرائز ودرسوها دراسة عميقة ، ثم استنبطوا فى نهاية البحث أن من الممكن تربيتها وتهذيبها ، وان لها فوائد ولا يستطيع احد الاستغناء عنها ، فشهوة الطعام تؤدى الى المحافظة على الحياة والغريزة الجنسية لو زالت من العالم لحكم على الانسان بالفناء . ولو فقدت غريزة الغضب ــ وهى المقاتلة ــ ما استطاع النوع الانسانى الدفاع عن نفسه . وان من يطلع على ما قاله فلاسفة الغرب فى الميول والاستعدادات الفطرية قديما يجد أنهم نادوا بكبتها وقمعها ، والقضاء عليها فى حين ان فلاسفة الاسلام لم يقولوا بالكبت والقمع بل اتخذوا الحد الوسط ونادوا بتربيتها وتهذيبها وتعليتها وراوا الاعتدال فى معالجتها ؛ وهذه هى الفضيلة عينها . وبهذا الرأى اتفقوا مع المحدثين من علماء النفس فى عصرنا هذا .

وقد وضح الامام الغزالى ان الرسل ــ وهم معصومون من الخطأ ــ لم ينزهوا عن الغضب وان الرسول الكريم محمد بن عبد الله كان يغضب للحق ويحمر وجهه من الغضب ولكنه مع غضبه كان يتمالك نفسه ويضبط شعوره ولا يصدر عنه الا الحق دائما .

وخلاصة القول ان التربية الاسلامية لم تعمل على قمع الغرائز وكبتها ولكنها عملت على تعديلها وتربيتها وتهذيبها وتوجيهها بالارشاد والنصح الى الطريق المستقيم واخضاعها لسلطان العقل والتفكير والحكمة وادخال القوة الناطقة وهى التفكير لدى الانسان فى الحكم والتوجيه . فالقدامى من فلاسفة الاسلام كانوا يسبقون القرن العشرين بمئات السنين . ومع هذا كانوا يتفقون مع علماء النفس فى هذا القرن فى الوسائل التى بها تربى الغرائز والميول الفطرية فى الانسان .

التربية الاسلامية وأثرها فى النهضة العلمية والعقلية :

لايستطيع أحد أن ينكر أن للتربية الاسلامية أثرا كبيرا فى النهضة العلمية والعقلية فقد ترك علماء الاسلام أثرا خالدا فى الفقه الاسلامى والفوا كتبا مفصلة وموجزة فى المذاهب الاربعة للأئمة : ابى حنيفة والشافعى ومالك وأحمد بن حنبل . وان من يطلع على تلك المؤلفات النفسية يجد تراثا ضخما فى التشريع الاسلامى والعبادات والمعاملات وتحديد العلاقات الروحية والاجتماعية والعملية الخاصة بالانسان . ويدل ذلك التراث على عظمة علماء الشريعة الاسلامية وقدرتهم النادرة علىالبحث والتفكير والاستقراء والاستنباط والحكم والتعليل ومثابرتهم العظيمة على الدراسة الفقهية التشريعية التى تتفق مع الدين والعقل والمنطق .

ولم يكتفوا بما الفوه من كتب قيمة فى الشريعة الاسلامية بل وضعوا قوانين اللغة العربية وقواعدها من النحو والصرف والمعانى والبيان والبديع والعروض والقوافى . واستنبطوا تلك القواعد والقوانين بطريقة مبتكرة دقيقة ، تدل على عقل منظم ، وتفكير سديد ، ورأى ناضج والمام تام بكل ما يتعلق باللغة العربية لغة القرآن الكريم من نثر وشعر . ولم يترك هؤلاء العظماء من العلماء صغيرة ولا كبيرة فى اللغة الا بحثوها ودققوا الفحص عنها ، وتفننوا فى الشعر وبحوره وحددوا اسسه وقوانينه بدقة متناهية .

وفى تفسير القرآن الكريم وشرح الأحاديث النبوية ألفوا كتبا قيمة وشروحا كثيرة مفصلة ومختصرة فى نواح متعددة تبرهن على ما أوتى الفقهاء وعلماء الاسلام من عظمة عقلية وذكاء فائق وصبر نادر ومقدرة علمية على البحث والتأليف والتبيين والتوضيح .

ولم يكتف العلماء بما ألفوه من الكتب فى العلوم الدينية بل اسهموا فى تدوين آثارهم واعمالهم العمرانية والسياسية والاجتماعية وتركوا آثارا خالدة فى كتب التاريخ والجغرافيا وكان لهم أثر كبير فى كتابة التاريخ الاسلامى ودراسة الشعوب والبلدان دراسة جغرافية واسعة.

ولم يكن فلاسفة الاسلام ضيقى العقول محدودى الأفق فى التفكير، بل كانوا واسعى الاطلاع غزيرى المادة شغوفين بالعلوم العربية والاجنبية فاطلعوا على كل حضارة قديمة ودرسوها دراسة مستفيضة وقرءوا قراءة عميقة ما كتبه المصريون القدماء والفرس والهنود والاغريق من طب وطبيعة وكيمياء وفلك ورياضة وفلسفة وموسيقا ، واضافوا الى ما درسوه وما قرءوه كثيرا من الآراء والافكار والتجارب والنظريات وخاصة فى الطب والطبيعة والكيمياء والرياضة فى عصر الامبراطورية الاسلامية . وكانت مؤلفات العلماء من المسلمين فى تلك العلوم واضحة وضوحا تاما فيها كثير من التجارب وتطبيق النظريات العلمية . ولا نبالغ اذا قلنا ان علماء الاسلام قد خدموا العلوم ببحوثهم العلمية خدمة عظيمة لا يستطيع ان ينكرها أحد . وان البحوث التى قاموا بها لا تقل فى اهميتها العلمية عما قام به علماء أوربا .